

أعوام من الإسراء

عادل عزت

الأيام

أعوام من الإسراء

المؤلف : عادل عزت

الطبعة الأولى : القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب : 3063 / 2012

جميع الحقوق محفوظة

- 1 -

وَجُوهٌ أَرَاهَا . أَأَعْرِفُهُمْ ؟ أَمْ هُوَ اللَّيْلُ
خَبَاءَهُمْ ؟ أَمْ هِيَ النَّفْسُ قَدْ ذَهَبَتْ
فِي وَجُودٍ غَرِيبٍ ؟

شَعَرْتُ بِهِمْ يَهْمِسُونَ بَأَنِّي
جُنِنْتُ فَقُلْتُ لِنَفْسِي لَوْ سَأَلُونِي
لَأَخْبَرْتُهُمْ دُونَ مَا خَجَلِ أَنْنِي قَدْ
جُنِنْتُ ... أَطِيلُ الْبَقَاءَ هُنَاكَ لَدَى
عَتَمَاتٍ بِهَا شُهْبٌ ، وَطُيُورٌ
مُهَاجِرَةٌ ، وَبِخُورٌ يَمْتُّ لِعَهْدِ
سَحِيقٍ .

أَلَيْسَ الْجُنُونُ أَمَاكِنَ نَائِيَةً هَامَ
فِيهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْحَالِمِينَ ، وَمَنْ
رَجَعُوا لِلطُّفُولَةِ !؟

أُرِيدُ الذَّهَابَ إِلَى عُرْزَةٍ تَتَنَاغَمُ
فِيهَا الْمَشَاعِرُ ، حِينَئِذٍ أَخْتَفِي عَنْ
وَجُودِي ، وَأَشْعُرُ أَنِّي خَمِيلَةٌ .

لِمَاذَا الَّتِي كُنْتُ أَعْشَقُهَا قَدْ مَضَتْ؟
إِنَّهَا الْوَرْدَةُ الْأَبَدِيَّةُ أَعْطَتْ لَجِسْمِي
مَفَاتِنَهَا ، وَاخْتَفَتْ . قَطَفْتُهَا يَدٌ ،
وَأَنَا جَاهِلٌ بِالْوُرُودِ .

فَرَأَحَتْ إِلَى ذَلِكَ الْأَسْرِ رَاضِيَةً .
هِيَ مِثْلُ الَّذِي يَتَتَبَعُ نُورَ
السَّرَابِ .

فَكَيْفَ أَرَاهَا ؟ وَكَيْفَ أُرِيهَا هِيَامِي
بِهَا تُمْ أَسْأَلُهَا أَنْ تَعُودَ ؟!

تَدَاخَلَتِ الذُّكْرِيَّاتُ فَصَارَ صِبَايَ
قَرِيبًا ، وَوَلَّاحَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ حَوْلِي
طُيُوفًا ، وَثَمَّةَ هَمْسٍ يَقُولُ : " تَعَالَ
مَعِي قَبْلَ أَنْ تَتَقَدَّمَ نَحْوَ
النَّهَائِهِ . "

فَأَعْطَيْتُ نَفْسِي إِلَىٰ صَفَحَاتِ كِتَابٍ
مِّنَ الشُّعْرِ كَانَ يُوحِدُ بَيْنَ الظَّلَامِ
الَّذِي فِي الكُهُوفِ ، وَبَيْنَ الظَّلَامِ الَّذِي
يَعْبُرُ المَلَكُوتَ .

فَصِرْتُ لَدَى اللَّيْلِ ظِلًّا ، وَحَوْلِي هُنَا
وَهُنَاكَ ظِلَالٌ ، وَكُنَّا نَزُولُ جَمِيعًا إِذَا
ذَهَبَ البَدْرُ خَلْفَ سَحَابِهِ .

رَأَيْتُ لِأَلِيِّ فِي البُعْدِ صَارَتْ تُشِعُّ
وَتَمْضِي فَلَمَّا تَقَدَّمْتُ لَاحَتْ مَسَاكِنُ
أَصْحَابُهَا يَحْلُمُونَ .

أَرَادُوا التَّسَامِي ، وَيَمْنَعُهُمْ أَنَّ
أَجْسَامَهُمْ تَتَحَرَّكَ مَأْسُورَةً فِي
الْوُجُودِ .

تَمَنَّيْتُ لَوْ كُنْتُ مِنْهُمْ فَقُلْتُ
سَاتِي إِلَيْكُمْ إِذَا اجْتَزْتُ مَا بَيْنَنَا
مِنْ غَمَامَةٍ .

لَقَدْ سَمِعُونِي وَمَا سَمِعُونِي ،
وَمَا جَاءَنِي نَعْمٌ تَتَلَقَى دَقَائِقُهُ
بِأَنَاشِيدِ صَاعِدَةٍ فَاقْتَرَبْتُ بِرُوحِي
مِنَ الرَّفْرَفَاتِ الْبَعِيدَةِ .

لَقَدْ صَارَتْ النَّفْسُ جُزْءًا مِّنَ اللَّيْلِ
حَتَّى أَفَقْتُ عَلَى صَوْتِ أُمِّي تُكَلِّمُنِي
وَهِيَ واقِفَةٌ خَلْفَ بَابِي ... " لَقَدْ
زِدْتَ بُعْدًا عَنِ اللَّهِ وَالنَّاسِ مُنْذُ
رَحِيلِكَ نَحْوَ الْقِرَاءَةِ . "

وَهَا هِيَ تَسْأَلُنِي أَنْ أَنْامَ .

- 2 -

جِدَارٌ قَدْ اَمْتَدَّ فِي الْبَهْوِ يَحْمِلُ
صُورَةَ جَدِّي اللُّوَاءِ .

وَمِنْ حَوْلِهَا صُورٌ تَتَزاحَمُ تَحْكِي
تَفَاصِيلَ أَيَّامِهِ مُنْذُ أَنْ كَانَ شَابًّا
يَخُوضُ الحُرُوبَ إِلَى أَنْ تَحَوَّلَ نَحْوَ
الثَّرَاءِ .

وَهَا هُوَ مُبْتَسِمٌ بَيْنَ بَعْضِ مِنَ
الوزراءِ بِقَصْرِ الرَّئِيسِ .

جَنَىٰ مِنْ شِرَاءٍ وَبَيْعِ الْأَرْضِ مِائَاتِ
الْمَلَائِينَ ثُمَّ قُبِيلَ الْمَمَاتِ تَلَاشَتْ
عَزِيمَتُهُ بَغْتَةً فَمَضَىٰ تَارِكًا ثَرْوَةً
لَيْسَ ثَمَّةَ مَنْ يَتَتَبَعُ أَثَارَهَا . ضَاعَ
مَا ضَاعَ أَمَّا الَّذِي قَدْ تَبَقَّىٰ فَيَكْفِي
الْبَنِينَ مِائَاتِ السِّنِينَ .

تَوَزَّعَتِ الثَّرَوَاتُ خِلَالَ الْمَسَافَاتِ ،
وَانْتَثَرَتْ فِي الْبِلَادِ .

قُصُورٌ ، مَزَارِعٌ شَاسِعَةٌ بِأَمَاكِنَ
شَتَّى ، أَرْضٍ ، يُخُوتٌ ، خَزَائِنٌ إِنَّ
فُتِحَتْ أَظْهَرَتْ لِلْعُيُونِ كَمَايْنِ مِنْ
خَدَرٍ وَوَعُودٍ .

رَأَيْتُ الْوُجُوهُ بِهَا رَهْبَةً بَعْدَ أَنْ
كَشَفَ الضُّوءُ مَا يَحْتَوِيهِ الظَّلَامُ
النَّفِيسُ .

طُقُوسُ الْوَرَاثَةِ قَدْ فَرَّقَتْ بَيْنَ
أَبْنَائِهِ . أَهٍ مَا كُنْتُ أَعْرِفُ
أَنَّ الْحَقَّارَاتِ تَمَكُّتُ مَعْزُولَةً فِي
النُّفُوسِ .

وها هي تَخْرُجُ لِلنُّورِ دُونَ مَوَارِبَةٍ ،
وَبِغَيْرِ انْتِهَاءٍ .

خَنَاجِرُ قَدْ خَبَّاتُهَا السَّرَادِيبُ عَامًا
فِعَامًا . هِيَ الْآنَ قَدْ بَدَأَتْ فِي الْحَنِينِ
لِسَفْكِ الدَّمَاءِ .

مئاتُ الْحِكَايَاتِ ضَاعَتْ بِقُبْرِكَ
يَا أَيُّهَا الْجَدُّ يَا مَنْ لَهْتَتْ وَرَاءَ
الثَّرَاءِ ، وَأُورَثْتَنَا ثَرَوَاتٍ تُصِيبُ
الَّذِي يَتَتَبَعُهَا بِاللُّهَاتِ .

أَكَانَ وَجُودُكَ مَحْضَ انْجِذَابٍ وَّرَاءَ
سَرَابٍ يُسَمَّى النِّعِيمَ ؟!

وَهَلْ جَاءَ يَوْمٌ عَلَيْكَ فَقُلْتَ
لِنَفْسِكَ : " مَاذَا أُرِيدُ ؟ !

لَدَيَّ حُشُودٌ مِّنَ الْمَالِ قَدْ
حَاصَرَتْنِي ، وَمَا عَادَ عِنْدِي عُمُرٌ
لأنْفِقَهَا ، وَالكَوَابِيسُ تُخْبِرُنِي أَنَّهَا
بَعْدَ مَوْتِي سَوْفَ تَبِيدُ .

تَمَادَيْتُ عَبْرَ حَيَاةٍ تَصَارَعَتْ
الرَّغَبَاتُ بِهَا ، وَتَشَتَّتَ قَلْبِي بَيْنَ
التَّفَاصِيلِ ... قَدْ أَثْقَلَتْ نِي
الْعَيُونَ الَّتِي حَسَدَتْ نِي ... أَمَا أَنْ
لِي أَنْ أُغَافِلَ هَذَا الزَّحَامَ ، وَأَتْرُكَهُ ،
وَأَعُودُ ؟ "

أُوفُ الشُّجَيْرَاتِ مَاتَتْ ، وَهَاهُو
جَدِّي يَجِيءُ إِلَيَّ بِحُلْمٍ . يَسِيرُ
خِلَالَ غُيُومِ النَّهَارِ ، وَمِنْ خَلْفِهِ
وَسُوسَاتٌ وَبَعْضُ الرِّءُوسِ .

تَقَرَّبَ مِنِّي وَقَالَ : " لَقَدْ كُنْتُ
مُسْتَرْسِلًا فِي الطُّمُوحِ ، وَصِرْتُ هُنَا
عَائِشًا فِي النُّعَاسِ .

وَهَذَا عِقَابُ يَفُوقِ الْجَحِيمِ . "

فَقُلْتُ لَهُ لَا تَخَفْ . إِنَّ عُمْرَكَ تَحْتَ
التُّرَابِ رُجُوعٌ إِلَى حَالَةٍ تَتَصَارَعُ
فِيهَا الْخَلَايَا بِلَا غَايَةٍ مُنْذُ أَنْ كَانَتْ
الْأَرْضُ تُخْلُو مِنَ الْكَائِنَاتِ خِلَالَ
الزَّمَانِ الْقَدِيمِ .

وَسَاءَ لَتُهُ كَيْفَ غَبِتَ وَرُحْتَ بَعِيداً
وَأَنْتَ لَدَيْكَ الْخَفَايَا ؟ أَرَادَ الْإِجَابَةَ
لَكِنِّي قَدْ صَحَوْتُ عَلَى صَرَخَاتِ أَبِي
وَهُوَ يَشْتُمُ خَادِمَةً ، وَيَحْطُمُ بَعْضَ
الْكُؤُوسِ .

- 3 -

أَبِي فَاقِدِ الْحِلْمِ ، مُسْتَهْتَرٌ بِمَشَاعِرِ
مَنْ يَعْمَلُونَ لَدَيْهِ ، وَيَمْلِكُ بَعْضُ
الطَّرَافَةِ .

لِسَانَ فَتِيٍّ بِهِ كُلُّ لَفْظٍ
شَنِيعٍ ، وَلَا .. لَا يَكَادُ يُخَبِّئُ سِرًّا
فَصَادَقَهُ مَنْ أَضَاعُوا كِرَامَتَهُمْ . هُمْ
يُحِبُّونَ أَنْ يَطْلُبُوا عَشْرَاتِ الْقُرُوضِ
الَّتِي لَا يَرُدُّونَهَا . إِنَّهَا صَفْقَةٌ :
يَأْخُذُونَ مِنَ الْمَالِ مَا يَأْخُذُونَ لِقَاءِ
الْإِهَانَةِ .

أَبِي لَا يَنَامُ إِلَىٰ أَنْ يَحُلَّ الضُّحَىٰ . إِنَّ
نَشْوَتَهُ سَهْرٌ صَاحِبٌ ، وَنَمِيمَةٌ .

وَمُنْذُ صِبَاهُ يُمَثِّلُ أَدْوَارَ شَرِّ
وَأَدْوَارَ خَيْرٍ وَحِيداً بَغْرَفَتِهِ ...
وَجَهُّهُ يَخْتَلِي بِالْمَرَآيَا يُجُودُ
الْفَازَةَ وَمَشَاعِرَهُ ، وَيُضَيِّعُ مِنْهُ
الشُّهُورَ .

فَكَانَ الْوَحِيدَ الَّذِي بَيْنَ إِخْوَتِهِ قَدْ
أَتَاهُ الرُّسُوبُ .

تَرَائِي الْوَجُودَ لِعَيْنَيْهِ نَاسًا تَعِيشُ
خِلَالَ الرُّوَايَاتِ . هُمْ فِي بَقَاءٍ ، وَأَمَّا
الَّذِينَ يَمْوُجُونَ مِنْ حَوْلِهِ فِي
الْحَيَاةِ فَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ وُجُودٍ .

وَمُنْذُ طُفُولَتِهِ قَدِ رَأَى كُلَّ
إِخْوَتِهِ خَضَعُوا لِتَعَالِيمِ جَدِّي
وَقَسَوْتَهُ . كَانَ يَبْكِي مِنَ الظُّلْمِ
حَتَّى تَمَرَّدَ يَوْمًا وَقَالَ : " أَنَا لَا أَحِبُّ
الدراسة . "

فَفَرَّ مِنَ الْبَيْتِ شَابًا ، وَصَارَ أَجِيرًا
لَدَى الْمُنْتَجِينَ . يُمَثِّلُ بَضْعَ ثَوَانٍ
هُنَا وَهُنَا لِقَاءَ الْقَلِيلِ الَّذِي
كَانَ يَجْعَلُهُ لَا يَمُوتُ .

وَبَعْدَ مُرُورِ السَّنِينَ تَفَرَّقَ أَبْنَاءُ
جَدِّي ... كُلُّ يَلُودٌ بِأَسْرَتِهِ .
يَنْعَمُونَ بِأَمْوَالِهِ دُونَ أَنْ يَأْبَهُوا
بِمَشَاعِرِهِ . تَرَكَوهُ وَحِيدًا يَعِيشُ
بِقَصْرِ يُحَاصِرُهُ بِالزَّخَارِفِ ، وَالْبَرْدِ ،
وَالْخَوْفِ ... أَمَّا الْكُوَابِيسُ فَهِيَ
الضُّيُوفُ الْمُقِيمَةُ .

فَرَّاحٌ لِأَصْغَرِ أَبْنَائِهِ الْهَارِبِ
الْمُتَمَرِّدِ، وَالْمُنْتَمِي لِحَيَاةِ لَهَا
صِلَةٌ بِالشُّخُوصِ الْمُرِيبَةِ .

رَأَهُ حَقِيرًا عَبُوسًا فَقَالَ لَهُ عُدْ
فَعَادَ، وَأُمِّي بِصُحْبَتِهِ تَتَحَيَّرُ غَيْرَ
مُصَدِّقَةٍ بِذَهَابِ الْحَيَاةِ الْفَقِيرَةِ .

رَأْنِي - وَكُنْتُ صَبِيًّا - فَصَارَ كَمَنْ
يَتَذَكَّرُ عَهْدًا بَعِيدًا ... شَكَأَنَّ أَبْنَاءَهُ
خَامِلُونَ ، وَظَنَّ بَأَنِّي خَلِيفَتُهُ
ثُمَّ قَالَ : " لَعَلَّكَ مَنْ سَيَكْرُرُ
مَجْدِي ، وَيَجْعَلُ عَائِلَتِي تَسْتَحِقُّ
الْخُلُودَ . "

وَبَعْدَ أَسَابِيعَ أُعْطِيَ أَبِي مَا أَرَادَ مِنَ
الْمَالِ حَتَّى يُغَيِّرَ هَيْئَتَهُ الْمُزْدَرَاءَ ،
وَيَدْخُلَ فِي زُمْرَةِ الْمُنتَجِينَ .

وَكُنَّا جَمِيعًا نُحْسِبُ أَنَّ الْحَيَاةَ
سَتَغْدُو جَمِيلَةً .

- 4 -

صَبِيًّا أَتَيْتُ إِلَى الْقَصْرِ مُنْفَصِلًا
عَنْ حَيَاةِ الدُّرُوبِ الْفَقِيرَةِ .

بِهَذَا افْتَقَدْتُ تَزَاحِمَ أَصْوَاتِهَا ،
وَاخْتِلَاطَ رَوَائِحِهَا ، وَاشْتَبَاكَ الْعَلَاقَاتِ
بَيْنَ النُّفُوسِ ، وَأَشْوَاقَ مَنْ يَعْْبُرُونَ
الزُّحَامَ .

أَتَيْتُ إِلَى الصَّمْتِ ، وَالسَّيْرِ عَبْرَ
الْفَخَامَةِ تَحْتَ الثُّرَيَّاتِ وَحَدِي . لِمَاذَا
زِيَارَتُنَا بَيْتَ جَدِّي لَا تَنْتَهِي ؟ وَمَتَى
سَأَعُودُ إِلَى أَصْدِقَائِي لِأُخْبِرَهُمْ
بِأَعَاجِيبِ هَذِي الزِّيَارَةِ ؟

لَقَدْ كَانَ جَدِّي حِينَ يَرَانِي
يُحَدِّثُنِي عَنْ بَطُولَتِهِ وَصِرَاعَاتِهِ .
إِنَّ حُبًّا يُجَمِّعُنَا ، وَأَنَا أَتَعَجَّبُ أَنِّي
حِينَ أُجَالِسُهُ أَتَجَوَّلُ فِي عَشْرَاتِ
السَّنِينَ الْغَرِيبَةِ .

وَيَوْمًا رَأَيْتُ بُعَيْنَيْهِ بَعْضَ الْأَسَى
وَهُوَ يَنْظُرُ لِي قَائِلًا: " يَا حَفِيدِي
أَنْتَ صَدِيقِي الْوَحِيدُ ."

وَيَوْمًا رَأَيْتُ ابْتِسَامَةَ أُمِّي
وَهِيَ تَقُولُ لْخَادِمَةٍ إِنَّ جَدِّي
حِينَ يُحَدِّثُنِي يَتَحَوَّلُ مِثْلِي
صَبِيًّا ، وَيَرْجِعُ نَحْوَ الْحَيَاةِ
النَّبِيلَةِ .

- 5 -

فُضُولٌ، وَثَرْتَرَةٌ، وَابْتِهَاجٌ، وَخَوْفٌ
مِنَ الْغَيْبِ مَمْلَكَةُ الْخَادِمَاتِ .

كَثِيرٌ مِّنَ الْكَلِمَاتِ تَمُرٌ بِسْمَعِي
إِذْ يَتَكَلَّمُنَ عَنَّا . يَخُضُنَ بِأَحْوَالِ
أُمِّي ، وَعَجْرَفَةٌ لَا تُفَارِقُ جَدِّي .

تَمَنِّيْنَ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ بَعْضَ الْمَهَالِكِ
نَحْوَ أَبِي ... كَانَ يَضْرِبُهُنَّ عَلَى
الْهَفَوَاتِ .

أَرَادَ التَّصَابِي بِصَبْغِ الشُّعَيْرَاتِ
فِي رَأْسِهِ ، وَأَرَادَ لَهُ اللَّهُ وَجْهًا
يَلُوحُ كَلِصًّا ، وَسَوْفَ تَكُونُ نِهَائِيَّةً
أَنْ يَمُرَّ قَطَارٌ عَلَيْهِ فَيُدْهَسُهُ
ثُمَّ يُطْلِقَ فَرَحَتَهُ فِي الْهَوَاءِ صَفِيرًا
يُدْوِي .

وَمَاذَا يَقْلُنَ بِشَأْنِي ؟ أَنَا هَادِيٌ طَيِّبٌ
الْقَلْبِ . لَيْسَتْ لَدَيْهِنَّ شَكْوَى سِوَى
أَنْنِي نَهْمُ النَّظَرَاتِ .

أَرَى بَعْضَهُنَّ يُصَادِقُ أُمَّي .

لَدَيْهَا قَلِيلٌ مِّنَ الْعِلْمِ مُمْتَزَجٌ
بِالتَّدْيِينِ . كَانَتْ تُطِيلُ الْمُكُوثَ
إِلَى شَاشَةِ الْبَيْتِ حَيْثُ تَخُوضُ
بِلا مَلَلٍ فِي جُنُوحِ الشُّيُوخِ إِلَى
المُعْجِزَاتِ .

رَأَيْتُ لَهَا صُورًا فَرَأَيْتُ صِبَاهَا .
لَدَيْهَا جَمَالٌ يُنَاقِضُ بُؤْسًا أَحَاطَ
بِهَا . إِنَّهَا الْآنَ تَرْنُو لِصُورَتِهَا
وَتَقُولُ : " لَقَدْ أَنْقَذَ اللَّهُ رُوحِي
فِي هَذِهِ السَّنَوَاتِ " .

أَمْرٌ بِهَا فَأَرَاهَا بُعِيدَ الصَّلَاةِ
تُطِيلُ الدُّعَاءَ .

أَتَشْعُرُ أَنَّ هُنَاكَ ذُنُوبًا أَلَمَّتْ بِهَا
مِنْ سِنِينَ فَتَطْلُبُ مَغْفِرَةً وَهِيَ
تَبْكِي ؟

لَقَدْ دَفَعْتُهَا مَقَادِيرُهَا ، وَطُمُوحُ قَلِيلٍ
يُخَالِجُهَا أَنْ تَصِيرَ مُمَثِّلَةً ، ثُمَّ
بَعْدَ شُهُورٍ رَأَتْ أَنَّهَا كَرِهَتْ أَنْ تَكُونَ
مُمَثِّلَةً ... حِينَئِذٍ أَحَبَّتْ زَمِيلًا
لَهَا وَرَأَتْهُ مُخْلِصًا فَاسْتَدَانَ لِكِي
يَتَزَوَّجَهَا ، وَانْتَهَى الْحُبُّ بَيْنَهُمَا
بَعْدَ أَنْ أَنْجَبْتَنِي .

غَرَائِبُهُ وَمَصَائِبُهُ كَالْجَرَاثِيمِ تَذْهَبُ
مَيِّتَةً ثُمَّ تَرْجِعُ نَابِضَةً فِي
الْهَوَاءِ .

رَأْنِي رَضِيْعًا فَادْرَكَ أَنَّ الْأَبُوَّةَ سِرٌّ
جَلِيلٌ وَلَكِنَّهُ قَدْ تَجَاهَلَ أُمَّي . رَأَهَا
مُرَبِّيَّةً . لَمْ يُحَاوَلْ وَلَوْ مَرَّةً أَنْ
يُعَاشِرَهَا . لَمْ تَعُدْ بِفِتَاةٍ ، وَكَانَ
أَبِي لَا يُحِبُّ سِوَى الْفَتَيَاتِ .

- 6 -

أَحِسُّ بِأَصْوَاتِ خَطْوِ بِمُنْتَصَفِ
الَّيْلِ فِي قَصْرِنَا ، وَهَنَالِكَ بَعْضُ
مِنَ الْهَمَسَاتِ .

فَرُحْتُ إِلَى مَبْعَثِ الصَّوْتِ ثُمَّ
أَضَاتُ الْمَصَابِيحَ فِي وَجَلٍ فَتَرَاءَتْ
ثَلَاثٌ مِنَ الْخَادِمَاتِ .

تَسْمَرْنَ حَيْنَ نَظَرْنَ إِلَيَّ ، وَهَاهُنَّ
يَجْرَيْنَ فِي فَزَعٍ . قَدْ رَأَيْتُ أَمَامِي
فَوْضَىٰ ... لَقَدْ كُنَّ يَفْتَحُنَ دُرُجًا
فَدُرُجًا ... عَلَى الْأَرْضِ تَبْدُو سَكَائِنُ
مِنْ فِضَّةٍ ، وَمَلَاعِقُ زَيْنَهَا ذَهَبٌ
أَهْ جِئْنَا بَلِيلِ الْمَكَانِ لِيَسْرِقُنَا
بَعْدَئِذٍ يَتَسَلَّلُنَا كَالهَارِبَاتِ .

فَأَيْقَظْتُ أُمَّي ، وَأَخْبَرْتُهَا بِتَفَاصِيلِ
مَا مَرَّ بِي وَأَنَا فِي أَنْفِعَالٍ فَلَمْ
تَنْدَهَشْ . أَخْبَرْتَنِي بَأَنَّ لَدَيْنَا الْكَثِيرَ
وَقَالَتْ : " نَعِيشُ وَمِنْ حَوْلِنَا ثَرَوَاتٌ
مُخَبَّأَةٌ ، وَلَسَوْفَ تَظَلُّ كَذَلِكَ
بِأَقْيَمَةٍ وَمُكَدَّسَةٍ فِي أَمَاكِنِهَا
لَا نَرَاهَا إِلَى أَنْ نَمُوتَ .

وَلَسْتُ أَظُنُّ بِأَنَّكَ سَوْفَ تَبُوحُ
بِتِلْكَ الْأُمُورِ لَجَدِّكَ أَوْ لِأَبِيكَ فَإِنَّهُمَا
فِي انْعِزَالٍ عَنِ الْفُقَرَاءِ .

حَيَاتِي هُنَا لَسْتُ أَفْهَمُهَا فَإِذَا مَا
ذَهَبْتُ لِأَهْلِي زَائِرَةً أَخْرَجْتَنِي مِنْ
غُرْبَتِي ضَجَّةَ النَّاسِ وَالْأَقْرَبَاءِ .

فَالْهَمَنِي اللَّهُ أَنْ أَتَقَرَّبَ مِنْهُمْ
فَعَالَجْتُ مَرْضَى ، وَزَوَّجْتُ رَاضِيَةً
عَشْرَاتٍ مِنَ الْفَتَيَاتِ . "

رَأَيْتُ ابْتِسَامَتَهَا قَدْ أَضَاءَتْ
ضَمِيرِي ، وَهِيَ تَضْحَكُ مِنْ حَيْرَتِي
وَتَقُولُ : " إِذَا بُحْتِ بِالسَّرِّ قُلْ إِنَّ
أُمَّيْ قَدْ عَلِمْتَنِي أَنْ أَتَغَاضَى عَنْ
السَّارِقَاتِ . "

- 7 -

بِجَامِعَتِي قَدْ تَفَوَّقْتُ فِي كُلِّ
شَيْءٍ ، وَزَادَ اغْتِرَابِي .

أَحَطْتُ بِمَا كَانَ يُطَلَبُ مِنِّي بِغَيْرِ
مُكَابَدَةٍ وَبِوَقْتٍ قَصِيرٍ ، وَهَا وَاحِدٌ
مِنْ أَسَاتِذَتِي قَدْ وَعَيْتُ نَصِيحَتَهُ
فَانْضَمَمْتُ إِلَى زُمَلَاءٍ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ
أَصْدِقَاءَ الْقِرَاءَةِ .

هناك رأيتُ الذي يتجاهلني ، ولمحتُ
الذي كان يُبدي احتجاجاً بنظرتهِ .
لكأنَّ وجُودي أهانَ كرامتهمُ
غَيْرَ أَنِّي تَعَمَّدْتُ أَلَا يَلُوحُ
اضطرابي .

لَجَأْتُ لِمَا كُنْتُ أَمْلِكُهُ مِنْ
تَوَاضِعِ نَفْسٍ ، وَوَجْهِ تَلُوحِ السَّمَا حَةِ
فِيهِ لِأُقْنِعَهُمْ بِقُبُولِي وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَمْ يَلِنُ ، وَسَمِعْتُ
الَّذِي يَتَعَجَّبُ أَنْ ثَرِيًّا يُحِبُّ
الْقِرَاءَةَ .

عَرَفْتُ زَمِيلاً يُعَامِلُ أَمْثَالَهُمْ
بِاحْتِقَارٍ ، وَيَبْدُو عَلَىٰ وَجْهِهِ صَلْفٌ .
قَالَ لِي : " إِنَّنَا غُرَبَاءُ عَلَيْهِمْ
لِذَا لَمْ أَحَاوِلْ صِدَاقَتَهُمْ . أَنْتَ
مِثْلِي أَنْيَقُ ، وَتَمْلِكُ سَيَّارَةً ، وَلَدَيْكَ
نُقُودٌ كَثِيرَةٌ .

إِذَا مَا تَقَرَّبَ مِنْكَ غَيْبِي يُرِيدُ
اِقْتِرَاضًا فَإِنَّ عَلَيْكَ التَّغَايِبِي .

نَعَمْ إِنَّهُمْ لَا يُطِيقُونَنا ... قَدْ تَعَدَّدَتْ
الْفَتَيَاتُ اللّٰوَاتِي نَظَرْنَ لَهُمْ بَازِدِرَاءٍ
لِيَجْعَلْنَ أَمْثَالَنَا مَطْمَعًا . إِنَّهُمْ
حَاقِدُونَ ، وَنَحْنُ لُصُوصٌ بِأَعْيُنِهِمْ
نَسْتَحِقُّ الْإِبَادَةَ . "

وَهَا هُوَ يَتْرُكُنِي وَاثِقًا أَنَّهُ
قَدْ هَدَانِي لِمَا كُنْتُ أَجْهَلُهُ
فَمَضَيْتُ أُسِيرٌ وَحِيدًا بِلَا غَايَةَ ،
وَالْغُرُوبُ يُخَبِّئُنِي ، وَبُكَائِي يَزِيدُ
اغْتِرَابِي .

- 8 -

رَأَيْتُ أَبِي مُسْرِفًا فِي شُرُودِ التَّلَفُّتِ
نَحْوِ النَّسَاءِ .

فَسَافَرَ بِي نَحْوَ مَنْزِلِنَا الْمُتَنَاقِمِ
بِالْبَحْرِ . كَانَ الشِّتَاءُ يَجِيءُ بِبَعْضِ
الْمَعَانِي ، وَوَلَّحَ لِي الْمَوْجُ يَأْتِي
وَلَا يَسْتَطِيعُ الْوَصُولَ لِمَنْزِلِنَا فَيَعُودُ
إِلَى حَيْثُ جَاءَ .

وَبَعْدَ مُرُورِ السُّوَيْعَاتِ جَاءَتْ فَتَاةٌ
لِعَلِيِّ أَعْرَفُهَا . دَخَلَتْ دُونَمَا خَجَلٍ
ثُمَّ أَغْلَقَتْ الْبَابَ تَارِكَةً خَلْفَهُ
لِحَظَاتِ دُخُولِ الظَّلَامِ ، وَبَرْدِ
الْمَغِيبِ .

أَعَدَّتْ شَرَابًا يُدْفِنُهَا . إِنَّهَا تَتَحَرَّكُ
عَارِفَةً بِالتَّفَاصِيلِ . هَلْ زَارَتْ
الْبَيْتَ مِنْ قَبْلُ ؟ هَا هِيَ تَنْظُرُ
نَحْوِي وَتُدْرِكُ فِي لِحْظَةٍ مَا بِجِسْمِي
مِنْ رَعَشَاتٍ .

أَرَاهَا تُثَرِّرُ فِي مَرَحٍ فَبَدَوْتُ
كَأَنِّي ضَيْفٌ غَرِيبٌ .

مُمَثَّلَةٌ فِي بَدَايَاتِهَا قَدْ أَطَاعَتْ
أَبِي فَاتَتْ لَتُخَلِّصَنِي مِنْ ذُهُولٍ
يَجِيءُ لِنَفْسِي كُلَّ مَسَاءٍ .

بِأَحْرَجٍ أَمْسَكْتَنِي ، وَرَاحَتْ لِعُرْفَةٍ
نَوْمِي ، وَكُنْتُ كَعَبْدٍ يُسَاقُ إِلَى
مَا تَشَاءُ .

تَخَلَّصْتُ مِنْ خَجَلِي ، وَأَطَعْتُ انْجِذَابِي
إِلَيْهَا فَرَأَحْتُ تُحَوْمٌ حَوْلِي ، وَقَبْلَ
انْدِمَاجِي بِأَنْفَاسِهَا وَهَبَّتْنِي قَلِيلًا
مِنَ اللَّمَسَاتِ .

سَمِعْتُ أَبِي يَتْرُكُ الْبَيْتَ . سَوْفَ
يَبِيْتُ بَعِيدًا ، وَيَتْرُكُنِي فِي
حِمَاهَا ... وَفِي سَاعَتَيْنِ تَحْوَلُ جِسْمِي
إِلَى سَيِّدِ الْعُقَلَاءِ .

لَقَدْ وَجَدْتَنِي هُمَامًا حَنُونًا
فَصِرْتُ أَحْسُبُ بِهَا فِي حِمَايَ ،
وَكَانَتْ تَقُولُ : " أَحِبُّكَ " فِي لَحَظَاتِ
الصُّرَاخِ ، وَكَانَتْ تُحِبُّ الْبِذَاءَةَ قَبْلَ
الْوَصُولِ إِلَى هَذِهِ اللَّحَظَاتِ .

أَخَذْتُ الْأَمْسُهَا فِي امْتِنَانٍ ، وَأَكْتُمُ
صَوْتَ انْتِشَائِي ... وَسَاءَلْتُ نَفْسِي
كَيْفَ تَنَامُ الطُّيُورُ الَّتِي فِي
حَدِيقَةِ مَنْزِلِنَا وَالرِّيَّاحُ الَّتِي حَوْلَهَا
مَطَرٌ وَضَبَابٌ ؟

وجاءَ إلىٰ خَاطِرِي أَن تَمَّةَ فِئْرَانِ
تَحْيَا سُعَارًا مِّنَ الْجِنْسِ وَقَتَ
التَّزَاوُجِ . لَا شَيْءَ تَفَعَّلُهُ غَيْرُ ذَاكَ
اللُّهَاتِ مِّنَ النَّشَوَاتِ الَّتِي تَتَوَاصَلُ
دُونَ انْقِطَاعِ إِلَىٰ أَن تَمُوتَ الذُّكُورُ
جَمِيعًا . مَا سِ بِهَا فَرِحَةٌ . يَا لَهُ مِنْ
فَنَاءٍ .

وعَادَ أَبِي فِي الصَّبَاحِ . رَأَىٰ وَجْهَهَا
فِي ذُبُولِ الَّتِي عَاشَرَتْ عُصْبَةً مِنْ
جُنُودٍ .

إِذَا مَا مَشَتْ شَعَرَتْ أَلْمًا حَارِقًا .
إِنَّهَا تَشْرَبُ الشَّايَ فِي كَسَلٍ
وَتَقُولُ : " لَعَلِّي أَحْتَاجُ شَهْرًا
مِنَ الزُّهْدِ حَتَّى أَعُودَ . "

وَهَا هُوَ يَنْظُرُ لِي حَاسِدًا ، ثُمَّ
صَارَ يُبَاهِي بِجُرْأَتِهِ وَفُحُولَتِهِ فِي
سِنِينَ الشَّبَابِ .

فَجَارَيْتُهُ وَكَتَمْتُ ارْتِبَاكِي . أُبُوَّتُهُ
كُنْتُ أَشْعُرُهَا تَتَدَفَّقُ صَادِقَةً ، وَطَوَالَ
الطَّرِيقِ إِلَى الْقَصْرِ كَانَ يُثْرِثِرُ حَتَّى
تَمَادَى فَقَالَ : " لَدَيَّ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَنْ
تَرَاهُ خِلَالَ كِتَابٍ . "

ظَنَنْتُ الَّذِي قَدْ جَرَى مَحْضَ
سِرِّي إِلَى أَنْ عَلِمْتُ بِأَنَّ أَبِي
قَدْ حَكَى سَاخِرًا كُلَّ مَا تَمَّ
لِلْأَصْدِقَاءِ !

- 9 -

خَرَجْتُ مِنْ الْقَصْرِ مُسْتَنْجِدًا
بِالصَّبَاحِ فَأَسْلَمْتُ جِسْمِي لَهُ
طَائِعًا ، وَظَلِلْتُ أُسِيرُ وَأَعْدُو
بِلا كَلَلٍ أَتَنَفَّسُ رَائِحَةَ الْعُشْبِ
حَوْلَ السِّيَاحِ .

شُهُورٌ مَضَتْ وَأَنَا أَتَذَكَّرُهَا ، وَحَيَائِي
يُبَاعِدُنِي عَنْ أَبِي . كَيْفَ أَطْلُبُ
مِنْهُ الذَّهَابَ هُنَاكَ لِتَكَرَّارِ تِلْكَ
العَلاقَةِ !؟

أَسِيرُ وَأَعْدُو .. ذُهُولِي يُسَاعِدُنِي ،
وَاشْتِيَاقِي يُغَادِرُ جِسْمِي وَيَرْجِعُ
نَحْوِي هَوَاءً يُطَارِدُنِي . أَيْنَ رَاحَتْ ؟
لَسَوْفَ أَرَاهَا خِلَالَ الشُّجَيْرَاتِ ... لَا ..
إِنَّهَا الْآنَ تَتَّبَعُنِي مِنْ بَعِيدٍ .

عَلَى الْبُعْدِ ثَمَّةٌ سُورٌ . هَلِ اخْتَبَأَتْ
خَلْفَهُ ؟ أَمْ هِيَ الْآنَ نَائِمَةٌ عِنْدَ
ظِلِّ ، وَسَوْفَ تَجِيءُ إِلَى الْقَصْرِ بَعْدَ
انْطِفَاءِ الظَّهِيرَةِ ؟

تَوَعَّلْتُ فِي الْوَقْتِ . هَا تَعْبِي يُسْرِعُ
الْعَدُوَّ حَتَّىٰ أَعُودَ إِلَىٰ غُرْفَتِي
فَأُراها هُنَاكَ .

لَسَوْفَ تُفَاجِئُنِي وَهِيَ ضَاحِكَةٌ فَأَقُولُ
لَهَا : " أَنْتِ مَأْسُورَةٌ هَاهُنَا . لَنْ
أُفْرَطَ فِيكَ ... " تَخَيَّلْتُ قَيْسًا تَوَعَّلَ
فِي حِضْنِ لَيْلَىٰ فَصَارَ بِلاَ غُرْبَةٍ ...
كُلَّمَا لَامَسْتَهُ تَلَاشَتْ حَمَاقَاتُ
أَشْعَارِهِ ، وَتَرَأَىٰ لَهُ أَنْ حِرْمَانَهُ كَانَ
إِثْمًا ، وَأَنَّ الْعَفَافَ خَطِيئَةً .

وها هي في لحظة تُغلقُ البابَ
ماكرةً فأقولُ: " أراك تُريدينَ تَكَرَّارَ
لَيْلَتِنَا فَاسْمَعِينِي .. إذا ما احتَضَنْتُكَ
لا تَصْرُخِي فَهُنَاكَ الْكَثِيرُ مِنْ
الْخَادِمَاتِ . "

شَعَرْتُ بِأَمِّي تَمُرُّ بِبَابِي . لَقَدْ
سَمِعْتَنِي أَكَلَمَ نَفْسِي ، وَصَوْتِي
مُسْتَرْسِلٌ فِي النَّحِيبِ .

فَمَا حَاوَلْتَ أَنْ تُكَلِّمَنِي . هِيَ تَعْرِفُ
أَنِّي أَكْتُمُ أَسْرَارَ قَلْبِي . كَأَنِّي
مِنَ الصَّخْرِ ... أَبْقَى خِلَالَ الْفُصُولِ
عَصِيًّا ، وَأَنْتَظِرُ الْمَاءَ حَتَّى يُبَلِّلَنِي .
كَيْفَ أَخْرَجُ مِنْ هَذِهِ الصَّحَرَاءِ
الْمُخِيفَةَ ؟ !

تَشَجَّعْتُ عِنْدَ الْمَسَاءِ .. " أَبِي سَوْفَ
يُنْقِذُنِي " فَاخْتَلَيْتُ بِهِ .. " إِنِّي
أَتَعَدَّبُ . كَيْفَ أَرَاهَا ؟ " فَقَالَ : " هِيَ
الآنَ قَدْ صَعِدَتْ لِلنُّجُومِ .

أَتَجْهَلُ أَخْبَارَهَا يَا جَهْلُ ؟

أَمَازِلَتَ مُبْتَعِدًا فِي الْمَتَاهَاتِ تَبْحَثُ
عَنْ كُتُبٍ لَا تُفِيدُ ؟

لَقَدْ بَدَأَتْ شَهْرَةً تَتَزَايِدُ فِي كُلِّ
يَوْمٍ ... هُنَاكَ رِجَالٌ لَدَيْهِمْ مِنَ الْمَالِ
أَكْثَرُ مِمَّا لَدَيْنَا يُرِيدُونَ مِنْهَا
الزَّوْاجَ .

لَدَيْكَ الْكَثِيرَاتُ يُفَعَلْنَ كُلُّ
الَّذِي فَعَلْتَهُ فَلَا تَتَعَنَّتْ ... أَرَاكَ
تَرَكْتَ الْحَيَاةَ جَمِيعًا لِأَجْلِ فَتَاةٍ
غَرِيبَةٍ . "

رَأَيْتُ بَعَيْنَيْهِ إِشْفَاقَهُ وَمَحَبَّتَهُ ،
وَاسْتَمَرَّ يُكَلِّمُنِي وَأَنَا صَامِتٌ أَسْمَعُ
اللَّوْمَ مُخْتَلِطًا بِالسَّبَابِ .

وَجَاءَ الصَّبَاحُ فَقَدَمْتُ جِسْمِي
لِلشَّمْسِ أَعْدُو خِلَالَ مَبَاهِجِهَا
كَالذَّلِيلِ .

أَخَذْتُ أُسَابِقُ وَهَمًّا ، وَصِرْتُ أُقَلِّلُ
مِنْ شَأْنِ مَنْ هَجَرْتَنِي . أُكْرِرُ لَوْمِي
لَهَا ، وَالثَّوَانِي قَدْ انْدَمَجَتْ بِمُرُوجِ
ظَلِيلِهِ .

لَقَدْ هَمَسْتُ وَهِيَ هَادِيَةٌ تَتَحَسَّنِي
" لَكَانِي أَحِبُّكَ " ثُمَّ اسْتَكَانَتْ إِلَى
كَسَلٍ ثُمَّ بَعْدَ دَقَائِقٍ صَمْتُ - مَكَثْنَا
بِهَا دَاخِلَ الدَّفءِ - قَالَتْ: " أَتَحْسَبُ
أَنِّي أَنَامُ ؟ "

وَفِي لَحْظَةٍ أَرُبُّكَتْنِي . لَقَدْ مَسَّهَا
اللَّيْلُ بِالسُّحْرِ فَاِنْسَحَبَتْ مِنْ
عِنَاقِي ، وَرَاحَتْ لَضَوْءٍ بَعِيدٍ قَرِيبٍ ،
وَوَضَعَتْ هُنَالِكَ تَرْقُصُ عَارِيَةً ،
وَتُرِينِي مَفَاتِنَهَا مُتَجَاهِلَةً أَنَّهَا
فِي الشِّتَاءِ .

مَكَثْتُ وَحَوْلِي بِصِيصُ ضِيَاءٍ وَكَانَتْ
تَرَانِي ، وَلَا .. لَا تَرَانِي ، وَتَشْعُرُ مَا
جَاءَنِي مِنْ ذُهُولٍ .

فَكَيْفَ إِذَنْ لَمْ تُحَاوِلْ مُكَالَمَتِي ؟
أَهْ كَيْفَ اخْتَفَتْ عَنْ وَجُودِي ؟ وَهَلْ
رَضِيَتْ أَنْ تُصِيرَ لَغِيرِي سِنِينًا ،
وَتَتْرُكَنِي لَيْسَ عِنْدِي مِنْهَا سِوَى
لَيْلَةٍ أُسْرَتَنِي ، وَلَنْ أَتَحَرَّرَ مِنْهَا
بِغَيْرِ لَيَالٍ كَثِيرَةٍ ؟ !

وَعِنْدَ الْمَسَاءِ رَأَيْتُ أَبِي تَائِهًا
فِي الشَّتَاتِ .

تَبَسَّمَ مُسْتَهْزِئًا سَائِلًا: " هَلْ
أُصِيبَتْ بِدَاءِ الْحَمَاقَةِ؟ "

وَأَخْبَرَنِي بِالطَّرِيقِ الَّذِي قَدْ هَدَانِي
إِلَى عَشْرَاتٍ مِنَ الْفَتَيَاتِ .

فَأَكْثَرْتُ مِنْهُنَّ . مَنْزِلُنَا السَّاحِلِيُّ
اِحْتَوَى سَهْرَاتِي ، وَبَعْدَ انْتِهَائِي
أَصِيرُ كَسِيرًا ، وَأَدْخُلُ فِي نَدَمٍ ...
قَدْ تَلَوَّثْتُ بِالسَّاقَطَاتِ .

أُحَاوِلُ نِسْيَانَهَا دُونَ جَدْوَى كَأَنِّي
أَحْبَبْتُ قَدِيْسَةً طَهَّرَتْ جَسَدِي ،
وَأَرْتَنِي الْحَقِيقَةَ .

وَمَرَّتْ شُهُورٌ فَصِرْتُ عَلَى ثِقَّةٍ
أَنَّهَا إِن رَأَتْنِي فَلَنْ تَتَذَكَّرَنِي .
إِنِّي مِنْ أَنْسٍ تَمُرُّ بِهِمْ
لَيْلَةٌ فَيُصَابُونَ دَهْرًا بِدَاءِ
الْحَمَاقَةِ .

تَحَوَّلَ إِقْبَالُهَا فِي خَيَالِي حُمَّى
فَصِرْتُ أُرَاوِغُهَا بِاللُّجُوءِ لِذَاكَ
الْجَحِيمِ مِنَ السَّهَرَاتِ .

وَهَا هِيَ أُمِّي تَسْأَلُ فِي قَلْقٍ
وَاضْطِرَابٍ : " لِمَاذَا الذَّهَابُ هُنَاكَ ؟ ! "

نَظَرْتُ إِلَيْهَا بِوَجْهِهِ يَلُوحُ بِهِ الصِّدْقُ
ثُمَّ بَدَوْتُ رَزِينًا ، وَقُلْتُ لَهَا كَذِبَةً
الْمَتْنِي : " أَكُونُ هُنَاكَ وَحِيدًا مَعَ
الْبَحْرِ مُخْتَلِيًا بِالسَّمَاوَاتِ ... حِينَئِذٍ
أَسْتَطِيعُ الْعِبَادَةَ . "

- 10 -

فَتَاةٌ بِهَا حَيْرَةٌ وَذَكَاءٌ رَأَتْ
مَا أَعْيَشُ بِهِ مِنْ ثَرَاءٍ فَلَمْ
تَتَمَلَّقْ، وَلَمْ تَتَبَدَّلْ . أَحَسَّتْ
بَأَنِّي اكْتَفَيْتُ فَلَاحَ حَيَاءٍ بِهَا
فَارْتَدَتْ كُلَّ مَلْبَسِهَا ثُمَّ رَاحَتْ
لَتَنْظُرَ عَبْرَ الزُّجَاجِ .

وَقَفْتُ بِجَانِبِهَا فَرَأَيْتُ اسْوَدَادَ
الْمِيَاهِ غُمُوضًا ، وَأَصْوَاتَ مَوْجٍ .
هِيَ الْآنَ تَنْتَظِرُ الصُّبْحَ حَتَّى إِذَا
جَاءَ تَمْضِي .

أَطَالَتْ تَأْمُلُهَا فِي الظُّلَامِ ، وَهِيَ
تَبْكِي .

وَلَمَّا رَأَتْنِي مُسْتَغْرِبًا مَسَحَتْ
دَمْعَةً ثُمَّ قَالَتْ : " هُنَاكَ أَخِي
وَخَطِيبِي بِتِلْكَ الْمِيَاهِ غَرِيقَانِ .
لَا قَبْرَ نَعْرِفُهُ لَهُمَا . قَدْ أَرَادَا
الرَّحِيلَ هُرُوبًا مِنَ الْقَهْرِ . لَمْ
يَخْشَيَا أَنْ تَمَّةً مَنْ مَاتَ قَبْلَهُمَا
فِي الرَّحِيلِ .

سَمَاسِرَةُ الْبَحْرِ لَا يَأْبَهُونَ بِأَرْوَاحِ
مَنْ يَرْحَلُونَ .

وَبَعْدَ شُهُورٍ ظَلِمْتُ بِهَا فِي ظُنُونٍ
تَيَقَّنْتُ أَنَّهُمَا دَخَلَا كَالْمَسَاجِينِ
فِي مَرْكَبٍ غَرِقَتْ وَبِهَا عَشْرَاتُ
الشَّبَابِ .

كَأَنِّي أَرَى الْآنَ فِي الْمَاءِ بَعْضَ
الطُّيُوفِ تَرُوحُ وَتَأْتِي . "

نَظَرْتُ إِلَيْهَا حَزِينًا وَلَكِنَّهَا انْدَفَعَتْ
ثُمَّ رَاحَتْ إِلَى الْبَابِ تَفْتَحُهُ ، وَاخْتَفَتْ
وَهِيَ تَبْكِي خِلَالَ الظَّلَامِ .

- 11 -

هَرَبْتُ لِبَعْضِ الَّذِي دَاخِلَ النَّفْسِ
مِنْ ذِكْرِيَاتٍ

هُوَ الصَّيْفُ يُبْدُو مَسَافَاتٍ شَوْقٍ
وَأَنْتَ بَرُومًا تَحَارُ خِلَالَ شَوَارِعِهَا ،
وَتَزُورُ مَتَاحِفَهَا ، وَتَزُجُّ بِجِسْمِكَ
دَاخِلَ مَقْهَى تَشْمُ فِتَاةً تَصُبُّ لَكَ
الْمَاءَ قَبْلَ وَصُولِ الطَّعَامِ .

أَحَبَّبْتُكَ شَهْرًا فَتُهِتَ خِلَالَ
حُقُولٍ إِذَا مَسَّهَا اللَّيْلُ بَاحَتْ
بِأَخْيَلَةٍ فَتَقَارِبْتُمَا ... وَالْعِنَاقُ
لَهُ صِلَةٌ بِالسَّحَابِ وَبِالنَّغْمَاتِ .

وَهَا دَفَقَاتُ الْبَنْفَسِجِ تَنْسَلُّ عِبْرَ
رُؤَاكُ .

وَلَكِنَّهُ الْعِشْقُ يَمْضِي حَثِيثًا
إِلَى الْحَضَاتِ الْوَدَاعِ وَيَذْهَبُ نَحْوَ
الْغُرُوبِ .

بِلَادٌ قَدْ انْدَمَجَتْ بِالْحَيَاةِ ، وَلَيْسَ
بِأَخْرَةِ وَشَيَاطِينِ تَعْبَثُ بِالنَّاسِ ...
إِنَّ الْعِبَارَاتِ وَاضِحَةٌ ، وَالْمَشَاعِرِ لَيْسَ
بِهَا مِنْ غُيُومٍ .

لماذا إذن لا تظلُّ هناك ؟!

- 12 -

مُصَادَفَةٌ أَخَذْتَنِي إِلَى سَهْرَةٍ جَاءَهَا
الشُّؤْمُ مُلْتَصِقًا بِأَبِي كَالْغُبَارِ الَّذِي
لَا يُرَى . كَانَ بَيْنَ السُّكَارَى مَلَا حِدَةً
بَدَأُوا فِي التَّهْكُمِ ، وَاللَّمَزِ فِي قَصَصِ
الْأَنْبِيَاءِ .

وخاصوا خلال تفاصيلها ، وأعاجيبها
بكثيرٍ من القهقهات .

ترأى أبي ضاحكاً غافلاً لا يحسُّ
بأخطار تلك الحوارات في بلدٍ
عائشٍ في العقيده .

لَقَدْ كَانَ يُؤْمِنُ أَنَّ هُنَاكَ إِلَهًا
فَهَلْ كَانَ يَضْحَكُ حَتَّىٰ يُجَارِيَ أَنَسًا
رَأَىٰ أَنَّهَا تَنْتَمِي لِلثَّقَافَةِ؟!

أَمَا كَانَ يُدْرِكُ أَنَّ هُنَاكَ حُدُودًا ، وَمِنْ
بَعْدِهَا الْمُهْلِكَاتُ ؟

تَفَشَّىٰ ارْتِبَاكَ فُكْلُ الْحُضُورِ
- عَدَا السَّاحِرِينَ - مِنْ الْمُؤْمِنِينَ .

لَقَدْ سَمِعُوا مَنْ يُحَقِّرُ إِيْمَانَهُمْ
فَاسْتَحَبُّوا الْخُرُوجَ مِنَ السُّكْرِ نَحْوَ
الْإِفَاقَةِ .

وَلَا حَتَّ مَعَارِكُ ظَلَّ الْكَلَامُ سِلَاحًا
وَحِيدًا بِهَا ثُمَّ عَادُوا قُعودًا
وَهُمْ يَلْهَثُونَ فَأَجْسَامُهُمْ تَكَتَسِي
بِشُحُومٍ، وَيُثْقِلُهَا مَا بِهَا مِنْ
عَشَاءٍ .

بِهَذَا اِكْتَفَوْا بِالشَّتَائِمِ وَاللَّعْنَاتِ .

وَجَاءَ صَبَاحُ رَأِينَا بِهِ صُحُفًا تَتَحَدَّثُ
عَنْ مُنْتَجِ مُلْحِدٍ، وَلَهُ زَوْجَةٌ نَجَحَتْ
فِي التَّعَرِّيِّ وَلَكِنهَا فَشِلَتْ كَمُمَثَّلَةٍ
فَتَوَارَتْ وَصَارَتْ كُؤُلُ اللُّوَاتِي فَشِلْنَ
يَلْحَنَ كَذِكْرِي أَلِيمَةٍ .

لماذا تراءى ابْنُهُ وهو شابٌ
بصُحْبَتِهِ؟! هل أرادَ له أنْ يَحِبَّ
المَبَاذِلَ في هذه السَّهَرَاتِ؟!

سَيَغْدُو وريثاً لِمَنْ لَمْ يُقَدِّمْ
إلى النَّاسِ إِلَّا كَثِيراً مِنَ اللُّغْوِ
مُمتزجاً بطرائفِ ساذجةٍ. إِنَّهُ
لا يُحِسُّ بِمِصْرَ التِّي زادَ فيها
الشَّقَاءُ، وضاعَ بها الأذْكَياءُ.

وَمَرَّتْ لَيَالٍ مَكَثْنَا بِهَا دَاخِلَ الْقَصْرِ
مُنْعَزِلِينَ كَأَنَّا احْتَمَيْنَا بِجُدْرَانِهِ .
هَذَا غَمُوزٌ يُبَيِّتُ بِأَجْوَائِهِ ... لَمْ
يَعُدْ بَيْنَنَا غَيْرُ صَمْتٍ بِهِ كَلِمَاتٌ
قَلِيلَةٌ .

وَجَاءَ صَبَاحٌ رَأَيْنَا بِهِ صُحُفًا
قَدْ تَشَجَّعَ فِيهَا قَلِيلٌ مِّنَ
الشُّرَفَاءِ .

لَقَدْ ذَكَرُوا سَرِقَاتِ الْأَرْضِيِّ ، وَدَفَعِ
أَلُوفٍ مِّنَ النَّاسِ فِي كُلِّ يَوْمٍ
لِتَنْضُمَ لِلتُّعَسَاءِ .

وَتَمَّةٌ مَنْ يَتَسَاءَلُ كَيْفَ تَغْيِيرِ
حَالِ اللُّوَاءِ الْمُحَارِبِ فَاَنْضَمَّ
لِلْأَثْرِيَاءِ ؟

أَرَادُوا امْتِلَاكَ الْبِلَادِ فَقَامُوا
بِإِضْعَافِهَا ... إِنَّ مِصْرَ غَنِيمَةٌ .

تَوَعَّلْتُ فِي الْكَلِمَاتِ فَبَاتَ ضَمِيرِي
أَطْيَافَ نَارٍ تُعَذِّبُنِي ثُمَّ تَخْبُو ،
وَلَكِنهَا لَا تَزُولُ .

لَقَدْ حَمَلْتُنِي جِرَائِمَ لَمْ أُرْتَكِبْهَا .
أَنَا مُذْنِبٌ ... صَفَحْتِي مَا بِهَا مِنْ
ذُنُوبٍ .

حَزِنْتُ عَلَى الشُّرَفَاءِ . ضَمَائِرُهُمْ
أُرْسَلَتْهُمْ إِلَى عَتَبَاتِ الْعُتَاةِ ،
وَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ رُجُوعٍ . هُمْ
الضُّعَفَاءُ .

فَلَمْ يَنْدَمُوا أَنَّ أَيَّامَهُمْ كَمَدٌ ،
وَمَخَاطِرُ شَتَّى ، وَأَنْوَارُ لَيْلٍ
قَلِيلَةٍ .

لَهُمْ زُمَلَاءٌ أَكَاذِبُهُمْ تَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ
يَوْمٍ . لَقَدْ جَعَلُوا كُلَّ مَنْ ظَلَمُوا مِنْ
وَجُودِ الْفَسَادِ رُعَاعًا ، وَمَنْ يَنْهَبُونَ
الْبِلَادَ حُمَاةَ الْفَضِيلَةِ .

حِوَارٌ ، وَصُورَةٌ جَدِّي وَهُوَ حَزِينٌ
يَرُدُّ عَلَيَّ كُلُّ مَنْ قَدْ تَجَنَّبُوا
عَلَيْهِ . لَقَدْ حَرَّرَ الْأَرْضَ ، وَالْآنَ
صَارَ يُعَمِّرُهَا . إِنَّ أَيَّامَهُ قَدَرٌ
وَرِسَالَهُ .

وَأَمَّا مِثَاتُ الْقَضَايَا الَّتِي حَاصَرَتْهُ
فَقَدْ بَرَأَتْهُ الْعَدَالَةُ مِنْهَا جَمِيعًا . لَقَدْ
أَخْرَسَ اللَّهُ أَلْسِنَةَ الْحَاقِدِينَ ، وَأَرْسَلَ
رُوحَ النَّزَاهَةِ كَامِلَةً فِي قُلُوبِ
رِجَالِ الْقَضَاءِ .

حوارٌ ، وفي قلبه صورةٌ لأبي
واقفاً في خشوعٍ يصلي ، وبين
العناوين ألقى إلى الناس بشرى ...
فبعد أسابيع سوف يحجُّ ، وبعد
الرجوع سينتج سلسلةً عن حياة
الصَّحابة .

حزنتُ على الشُّرفاء ...

- 14 -

رِيَّاحُ اللَّيَالِي كَخَيْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ
كَرُّهُ وَفَرُّهُ . لَقَدْ مَاتَ قَبْلَ اكْتِمَالِ
الْغِنَاءِ .

وَكَانَ جَدِيرًا بَأَلَا يَمُوتَ إِذَا مَا تَخَاذَلَ
عَنْ حَرْبِهِ ، تَارِكًا ثَأْرَهُ ، هَائِمًا يَتَرَحَّلُ
بَيْنَ الْيَنَابِيعِ فِي الصَّحَرَاءِ .

وَأَسْمَعُ لَوْمًا : " لِمَاذَا اخْتَفَيْتَ فَمَا
عُدْتَ مُكْتَرِثًا بِمَا سِيَ الْبُيُوتِ
الْبَعِيدَةِ ؟ ! " "

فَقُلْتُ: " رَأَيْتُ جِبَالاً مِنْ الْمَالِ حَوْلِي
فَصِرْتُ ضَيْلًا . مَكَثْتُ بِجَانِبِهَا
كَالسَّجِينِ فَمَنْتَ عَلَيَّ فَمَا احْتَجْتُ
شَيْئاً فَمَاتَ طُمُوحِي ... إِذَا مَا تَمَرَّدْتُ
أَرْجِعُ نَحْوَ الدُّرُوبِ الْفَقِيرَةِ .

رَأَيْتُ ظِلَالاً وَنَاسًا فَرَاقَبْتُ مَا مَرَّ
بِي مِنْ وَجْهِ لَعَلِّي أُحِسُّ بِوَجْهِ
يَصِيرُ صَدِيقًا . ظَلِلْتُ كَذَلِكَ
حَتَّى رَأَيْتُ غُرُوبًا ، وَآخِرُ ضَوْءٍ مِنْ
الشَّمْسِ أَوْحَى لِقَلْبِي أَنْ أَتَوَارَى
وَحِيدًا ... هُمُ الْأَثْرِيَاءُ بِلَا أَصْدِقَاءٍ . "

صَحَوْتُ مِنَ النَّوْمِ مُخْتَنِقًا كَاتِمًا
صَرَخَاتِي ... أَنَا لَنْ أَنَامُ .

خَرَجْتُ مِنَ الْقَصْرِ ، وَاللَّيْلُ مُنْدَفِعٌ
فِي مَتَاهَاتِهِ . إِنِّي أَتَبَدُّ أَسِئَلَةً ...
قُلْتُ سَوْفَ أَسِيرُ كَثِيرًا لِأَبْلُغَ
تِلْكَ السَّحَابَةَ .

تَذَكَّرْتُ أَنِّي قَرَأْتُ كِتَابًا يُشِيرُ إِلَى
سَاءٍ يَسْتَبِدُّ بِبَعْضِ الْمُلُوكِ .

تَرَأَى لَهُمْ أَنْ كُلَّ الْمَلَدَاتِ تَحْدُثُ
فِي لَيْلَةٍ تَتَكَرَّرُ حَتَّى تُسَلِّمَهُمْ
لِلْهَلَاكِ .

أَخَذْتُ أُسِيرُ إِلَى أَنْ تَلَّاشَتْ أَمَامِي
السَّحَابَهُ .

فَعُدْتُ كَأَنِّي هُزِمْتُ . أَرَى الْقَصْرَ
فِي الْبُعْدِ مُسْتَسْلِمًا لِحَدَائِقِهِ ،
وَالْمَصَابِيحَ قَدْ أَظْهَرْتَهُ فَلَاحَ جَمِيلاً
مَهِيبًا ... فَمَنْ ذَا يُصَدِّقُ أَنْ كَثِيرًا
مِنَ اللَّعْنَاتِ تَخَفَّتْ هُنَاكَ !؟

وَهَا هِيَ أُمِّي تَلُوذُ بِعُرْفَتِهَا بَعْدَ
أَنْ نُشِرَتْ صَفْحَةٌ طُوِيَتْ مِنْ
سِنِينَ ، وَوَلَّاحَ بِنَظَرَتِهَا أَنَّهَا تَتَّبَعِدُ
عَمَّا بِهَا مِنْ سَكِينَةٍ .

تَقَرَّبْتُ مِنْهَا كَثِيرًا كَأَنَّ ابْنَتِي
مَرِضَتْ . إِنَّ أَعْمَاقَهَا تَسْتَفِيثُ
بِغَيْبِ تُحْسٍ بِهِ حَوْلَهَا ، وَأَنَا
لَا أَرَاهُ .

وَأَنْظُرُ فِي وَجْهِهَا لِأَيْمًا ... إِنَّهَا
تَتَمَنَّى الْمَمَاتُ .

كَأَنِّي قُلْتُ لَهَا أَنْتِ أُمِّي فَايَّاكَ أَنْ
تَتْرُكِينِي ... بِغَيْرِ وَجُودِكَ تَبْطُلُ
هَذِي الْحَيَاةُ .

وَسَاءَ لْتُ نَفْسِي مَتَى سَيَزُولُ عَنِ
الْقَصْرِ صَمْتُ تَرَاكَمَ فِيهِ ، وَصَارَ
يُشَابِهُ صَوْتَ الْبُكَاءِ ؟!

- 15 -

تَلَاشَىٰ مَعَ اللَّيْلِ جَدِّي ، وَلَمَّا
أَتَاهُ الصَّبَاحُ رَأَيْنَاهُ مُكْتَتِبًا مَيِّتًا
لَا يُحِسُّ بِمَا حَوْلَهُ مِنْ بُكَاءٍ ، وَمِنْ
فَزَعِ الخَادِمَاتِ .

وَبَعْدَ أسَابِيعٍ مِنْ مَوْتِهِ قَدُ
تَرَاءَتْ صِرَاعَاتُ أبنَائِهِ تَتَعَفَّفُ
مِنْهَا الذُّنَابُ .

أَبِي قَدْ تَقَمَّصَ رُوحَ الشَّيَاطِينِ .
كَانَ يَرَى أَنَّ إِخْوَتَهُ وَمَطَامِعَهُمْ
كَالثَّعَابِينَ إِذْ تَتَشَابَكُ ... لِأَبْدَانٍ
تَتَبَاعَدُ عَنْهُ وَإِلَّا فَسَوْفَ تَمُوتُ .

تَرَأَى الْهَمَّ حَنِقًا وَمُخِيفًا ، وَصَارَ
يُهَدِّدُهُمْ فَتَبَدَّى أَخًا مُجْرِمًا سَوْفَ
يَسْتَأْجِرُ الْمُجْرِمِينَ لِيَقْضُوا عَلَيْهِمْ
إِذَا لَمْ يَصِيرُوا لَهُ طَائِعِينَ .

قَدْ ارْتَعَبُوا هُمْ وَأَبْنَاوَهُمْ فَتَمَادَى ،
وَنَالَ الَّذِي كَانَ يَطْمَعُ فِيهِ فَلَمْ
يَبْقَ إِلَّا الْقَلِيلُ .

وَكَانَ الْقَلِيلُ كَفِيلاً بِإِسْعَادِهِمْ
عَشْرَاتِ السَّنِينَ .

ضَغَائِنُهُمْ فَرَّقَتْهُمْ ، وَلَيْسَ
يُجْمَعُهُمْ غَيْرُ حِقْدٍ عَلَى ذَلِكَ
الْمُسْتَبَدِّ الْبَغِيضِ .

أَرَاهُ فَخُوراً يَقُولُ : " لَسَوْفَ أَحُولُ
نَفْسِي مِنْ مُنْتَجِ هَازِلِ عَدَمِي
إِلَى مُنْتَجِ قَدْ أَرَادَ الْخُلُودَ .

وَكُلُّ السَّنِينَ الَّتِي عِشْتُهَا هَذَا أَنَا
أَتَبَرُّ مِنْهَا ، وَأُلْقِي بِهَا فِي
الظَّلَامِ .

سَأَجْعَلُ مَا قَدْ تَبَقَّى مِنَ الْعُمْرِ
سِحْرًا مِنَ الْفَنِّ يُفْضِي لِسِحْرِ ،
وَمَا سَوْفَ يُطَلَبُ مِنِّي سِيَّاتِي بِهِ
الْمَالُ وَهُوَ كَثِيرٌ .

نُجُومٌ ، شَوَارِعُ مَمْلُوءَةٌ بِزِحَامٍ ،
مَلَابِسٌ مِنْ كُلِّ عَصْرِ ، قَوَافِلُ رَاحِلَةٌ
فِي صَحَارَى ، خَيُْولٌ ، قِتَالٌ ، دُرُوبٌ
بِهَا اللَّيْلُ مُنْتَشِرٌ وَالْمَصَابِيحُ
خَافِتَةٌ سَارَى الْعَدَسَاتِ مُصَوَّبَةٌ
نَحْوَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ .

وَأَجْهَزَةُ الصَّوْتِ يُمَكِّنُهَا أَنْ تَبْوَحَ
بِكُلِّ التَّفَاصِيلِ : مِنْ صَخَبِ الْحَرْبِ
حَتَّى مُرُورِ الْهَوَاءِ خِلَالَ السُّكُونِ .

سَيَذَكِّرُنِي النَّاسُ مُقْتَرِنًا بِالْأَعَاجِبِ
وَالْعُظْمَاءِ .

وَقَدْ يَتَغَيَّرُ قَلْبِي فَأَعْدُو عَفِيفَ
اللِّسَانِ . "

رَأَيْتُ أَبِي لَمْ يَعْذُ بِأَبِي
لَكَانَ الْعَوَاصِفَ قَدْ دَفَعَتْهُ إِلَى
مَا يُرِيدُ .

وَهَا هُوَ يَدْعُو إِلَى الْقَصْرِ بَعْضَ
الْمَشَاهِيرِ فِي صُحْبَةِ الْمُخْرَجِ
الْعَبْقَرِيِّ الْكَثِيرِ الدَّهَاءِ .

وَبَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ السُّكْرِ قَالَ
أَبِي : " إِنِّي كُنْتُ مُبْتَدِلًا حِينَ
أَنْتَجْتُ مِنْ قَبْلِ تِلْكَ السَّفَالَاتِ
لَكِنِّي الْآنَ بَيْنَ يَدَيْكَ أَتُوبُ . "

فَقَالَ لَهُ الضَّيْفُ فِي طَيْبَةٍ وَتَعَالٍ :
" إِذَا مَا عَمِلْنَا مَعًا أَنْتَ لَنْ تَتَدَخَّلَ
فِي أَيِّ أَمْرٍ . أَنَا مَنْ سَيَخْتَارُ مَنْ
يَعْمَلُونَ . "

سَتُنْفِقُ مَا لَكَ كَثِيرًا ، وَأَعْلَمُ أَنَّكَ
تَمْلِكُهُ غَيْرَ أَنِّي عَنِيدٌ ، وَأُنْحَازُ
لِلْفَنِّ دُونَ رِيَاءٍ .

وَيَا لَيْتَنِي وَأَنَا فِي شُؤْنِي مُنْشَغِلٌ
لَا أُرَاكَ . "

تَرَاءَى أَبِي صَامِتًا مُسْتَجِيبًا ، وَبَعْدَ
انْتِهَاءِ الزِّيَارَةِ صَارَ يُقَاوِمُ مَا جَاءَهُ
مِنْ وُجُوهٍ .

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِيئُوسٍ فَقَالَ : " بَبُطَّةٍ
سَأَصْعَدُ نَحْوَ النُّجُومِ . "

- 16 -

وَجُوهُ النَّسَانِيسِ تَبْدُو عَلَيْهَا
الطَّرَافَهُ .

وَلَمَّا تَجُوعٌ تُغَادِرُ أَشْجَارَهَا ثُمَّ
تَمْضِي خِلَالَ الْغُصُونِ لِتَصْطَادَ
بَعْضَ قُرُودٍ مُجَاوِرَةٍ ثُمَّ تَأْكُلُهَا
حَيَّةٌ . يَا لَهَا مِنْ وَلِيمَةٍ .

وَهَا هِيَ تَرْجِعُ ثَانِيَةً لَطَّرَافَتِهَا
وَتَقَافُزُهَا . إِنَّهَا - لَسْتُ أُدْرِي
لِمَاذَا - تُذَكِّرُنِي بِجَرَائِمِ جَدِّي
الرَّهْيَبَةِ .

وَأُمِّي الَّتِي رَحَلَتْ مُنْذُ عَامَيْنِ
فَاكْتَمَلَتْ غُرْبَتِي قَدْ أَتَتْني مِنْ
الصَّمْتِ طَيْفًا ، وَلا مَتَّ أَنْسَاءُ بِلَا
سَبَبٍ يَدِّدُوا صَفْوَهَا فَاسْتَكَانَتْ
لِوَهْمِ أَلَمِ بِهَا . تَرَكَتْني وَرَاحَتْ
إِلَى غَفْوَةٍ فَسَمِعْتُ خِلَالَ الشُّجَيْرَاتِ
صَوْتَ بُكَاءٍ .

وَبَعْدَ دَقَائِقٍ مِنْ مَوْتِهَا قَدْ
شَعَرْتُ بِهَا تَتَحَوَّلُ حُلْمًا يُرِيدُ
الذَّهَابَ .

أَبِي قَدْ أزالَ التَّجَاعِيدَ عَن وَجْهِهِ
بِالجِراحَةِ .

تَرَأَى العَيْنَيَّ شَابًّا عَجوزًا فَذَكَرَنِي
بِالمُسوخِ التي تَتَمازَجُ بِالنَّاسِ في
قِصصِ أربِكَتَنِي خِلالَ الطُّفولَةِ .

يَعودُ إلى القَصْرِ في اللَّيْلِ مُصْطَحِبًا
فَتَيَاتٍ فَيَزِدْجِمُ البَهُوُ بِاللُّغُوِ ،
وَالسُّكْرِ ، وَالضَّحِكَاتِ .

لَقَدْ ظَنَّ أَنَّ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَالِ
يَأْتِي لَهُ بِالنُّبُوغِ ، وَقَدْ يَتَصَاعَدُ
نَحْوَ الْبُطُولَةِ .

نَعَمْ كُلُّ هَذِي الْكَوَابِيسِ تَأْتِي
وَتَمْضِي وَلَا أَسْتَطِيعُ الْجُنُونَ .

كَأَنَّ الْمَجَانِينَ يَأْتُونَ هَذِي الْحَيَاةَ
وَهُمْ يَمْلِكُونَ عُقُولًا بِهَا وَسُوسَاتُ
تَزِيدُ مَعَ السَّنَوَاتِ .

دَخَلْتُ إِلَى عَزْلَةٍ أَهَّلْتَنِي لِأُصْبِحَ
مِنْهُمْ إِلَى أَنْ تَوَهَّمْتُ أَنِّي انْضَمَمْتُ
إِلَيْهِمْ فَصِرْتُ كَمَنْ يَتَجَوَّلُ دَاخِلَ
كَهْفٍ وَلَكِنِّي لَسْتُ أَمْلِكُ
أَوْهَامَهُمْ ، وَهَوَاجِسَهُمْ ... هَكَذَا بَتُّ
أُدرِكُ أَنِّي لَا أَسْتَطِيعُ الْجُنُونَ .

عَلَيَّ الرَّحِيلُ إِلَى بَلَدٍ أَرْتَضِيهِ
بِلَا نَدَمٍ مَوْطِنًا ... لَيْسَ يَعْرِفُنِي
أَحَدٌ فِي مَسَافَاتِهِ وَأَنَا أَتَلَشَّى
غَرِيبًا وَحَوْلِي بِلَادُ الثَّلُوجِ تَلُوحُ
بِغَيْرِ نَهَائِهِ .

لَسَوْفَ أَحَاوِلُ أَنْ أَتَعَلَّمَ أَسْرَارَهُمْ ،
وَأَخْوِضَ أَعَاجِيبَهُمْ . سَأَظَلُّ هُنَاكَ
مُقِيمًا وَقَدْ لَا أَعُودُ .

سَأُنْسِي سِنِينَ الثَّرَاءِ ، وَأُخْفِي
عَنِ النَّاسِ بَعْضَ تَفَاصِيلِ عُمُرِي
مُنْدَمِجًا بِالْمَصَائِرِ دُونَ ارْتِبَاكِ ،
وَمُحْتَمِيًا بِالصَّدَاقَةِ .

أراني أنامُ وأصواتُ بحرٍ تُحاصِرُنِي ،
والسَّفِينَةُ إِذْ تَتَبَاعَدُ عَنْهَا الشَّوَاطِئُ
بَيْتِي ، وَثَمَّةٌ مَوْجٌ يَجِيءُ لِيَغْدُوَ
مُنْدَمِجًا بِالسَّفِينَةِ .

هُوَ الْبَحْرُ مُتَّصِلٌ بِكِيَانَاتِهِ . يَتَطَهَّرُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ بِأَمْوَاجِهِ . إِنَّهُ كَائِنٌ مِنْ
شُرُودٍ .

إِذَا مَا حَلَمْتُ وَحَوْلِي ظَلَامٌ مِنَ الْمَاءِ
لَا حَتَّ نُجُومٌ قَدِ انْتَلَقَتْ فِي سَمَاءِ
قَرِيبَةٍ .

وَجَاءَتْ مَعَ الرِّيحِ وَسُوسَةٌ ... إِنَّ مِصْرَ
بِهَا غُرْبَتِي ، وَبِهَا أَثْقَلْتَنِي اللَّيَالِي
الْمُخِيفَةَ .

كَأَنِّي أَعَاتِبُهَا بِرَحِيلِي عَنْهَا . كَأَنِّي
أَعَانِدُهَا فَأَصِيحُ : زَهَبْتُ .. وَلَا لَنْ
أَعُودُ .

تَبَدَّدَ فِي اللَّيْلِ صَوْتُ بُكَائِي . أَنَا
لَسْتُ شَيْئًا ، وَلَيْسَ ذَهَابِي سِوَى
وَرَقٍ أَخَذِ فِي السُّقُوطِ .

سَمِعْتُ طُيُورًا تُقَاوِمُ مَا حَوْلَهَا
مِنْ ظَلَامٍ فَقُلْتُ لَسَوْفَ أَعُودُ
إِذَا مَا تَبَاعَدْتُ عَنْ رَغْبَتِي فِي
الْجُنُونِ .

وَبَعْدَ شُعُورِي بِأَنِّي تَخَلَّصْتُ مِنْ
لَعَنَاتِ الْقَرَابَةِ .

وَبَعْدَ انْدِمَاجِي بِهَذَا الْوَجُودِ .

أعمال الشاعر عادل عزت

تاريخ الطبعة الأولى	
1983	١- المتصوفون الشعراء في الزمن العصيب
1988	٢- اختباء النور
1990	٣- العرب القدماء
1990	٤- هواجس الشاعر المقتول
2000	٥- السبعة
2006	٦- ظلام المرسم
2009	٧- البيت المسكون
2010	٨- قصائد الفاني الأبدى
2011	٩- الهجرة بعيداً عن عواصف الحجاز
2012	١٠- أعوام من الإسراء

دواوين الشاعر عادل عزت على الموقع

www.adelezzat.com



ت : 22989714 - 22960665 - 22978425
فاكس : 22989251